

الحروف العربية والحواس الست

حسن عباس
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

اللغة، كأداة للتواصل بين البشر، هي كالآصوات المجرائية والحركات البدنية، وما إليها من وسائل التواصل والإعلام في دنيا الإنسان والحيوان على حد سواء.

ولكن لماذا انصرف الإنسان عن وسائل الإعلام البديلة هذه إلى اللغة، وبينهما فروق نوعية جبارة استحال على الحيوان أن يجتازها إلى اللغة؟

كان الفلاسفة وعلماء اللغة والنفس يعزون ذلك إلى ملكة العقل في الإنسان. ولكن يبدو أن علماء البيولوجيا قد جاؤوا بتعليق جديد آخر.

فلقد اكتشف علماء اللغة البيولوجيون مؤخرًا، لغة حياتية مسجلة على شريط كيميائي في جزيء الحمض النووي من الخلية البدنية المولدة، أطلقوا عليها اسم مدونة (ADN). وبفك رموز هذه المدونة وجدوا أنها مؤلفة من أربعة أحرف، دعواها بالأبجدية الوراثية، ورمزوا إليها بأحرف (ت. س. غ. آ).

ويشمل معجم هذه المدونة (64) كلمة، قد تمايز بعضها عن البعض، كل كلمة منها تشكل متواالية من ثلاثة أحرف على الشريط الكيميائي، الأنف الذكر⁽¹⁾.

وإذن يمكن أن نستنتج من هذا الاكتشاف اللغوي البيولوجي الحديث، أن الإنسان لم يبدع اللغة استجابة عقلية للضغط البيئية المشتركة بين الإنسان

(1) كتاب الاتجاهات الرئيسية لبحث العلوم الاجتماعية والإنسانية. اليونسكو، المجلد الثاني، ترجمة وزارة التعليم العالي السورية ص. 306-311.

والحيوان فحسب، وإنما استجابة لتركيبه البيولوجي أيضاً، وقد جهز بشرط لغوي مسجل في خلية البذرية المولدة (فسبحان الذي علم الإنسان ما لم يعلم).

وهكذا فاللغة بحسب هذا الاكتشاف تنتهي إلى الخصائص البيولوجية في الإنسان، قبل أن تنتهي إلى الملكة العقلية فيه. وإن لغة الإنسان الفجر هي من نتاجه الفطري اللاصق بالغرائزه وليس قطعاً مجرد مصطلحات عقلية توافق الناس على معانيها.

كما يدعم هذا الاكتشاف صحة من ذهب إلى القول بأن أصوات الحروف، هي أصل اللغة، وإن اللغة ذات الأفعال والمصادر الثلاثية الأحرف، كاللغة العربية، هي أقرب إلى فطرة الإنسان الموروثة من سواها.

أسوق هذه النبذة عن مدونة (ADN) وأبجديتها الوراثية، لا كحقيقة علمية نهائية، لتحليل نشأة اللغة، ففي كل يوم حدث علمي جديد، وإنما للوصول إلى أن الرابط بين أصوات الحروف العربية والحواسين، ليس أمراً مزاجياً، إذ يمكن أن يرقى هذا الرابط إلى مرتبة العلمي، إذا أيدته التجربة.

وهكذا تعرضت في هذه الدراسة بحكم الصلة الجديدة المفترضة بين الحروف العربية والحواسين، إلى قضايا خاصة تتصل بعلوم النفس والاجتماع والتاريخ والآثار والفيزيولوجيا والأصوات، لم يسبق أن تعرض لها باحث في اللغة العربية على ما أعلم.

فمجرد القول بوجود حاسة سادسة، ومن ثم السعي للكشف عن العلاقة الكائنة بين أصوات الحروف العربية وبين الحواسين، مما لم يثيره دارس في اللغة العربية حتى الآن، لا بد له من نهدٍ جديد في البحث والتقصي، ولا بد لهذا النهج إذا كان صحيحاً أن يطرح قضايا غير مطروقة، ليصل إلى نتائج غير مسموعة.

ومع ذلك لا يحسن القارئ أن موضوع هذه الدراسة مبتكر لم يسبقني إليه أحد. فلقد تناوله كثير من علماء اللغة العربية وفلسفتها وفقهائها وأدبائها طوال ألف عام ونيف.

فالموضوع الأساسي لهذه الدراسة هو فطرية اللغة العربية.

وهذه الفطرية التي ظلت من مسلمات المدرسة اللغوية القديمة، طوال ألف عام، قد رفضها أخيراً أصحاب مدرسة لغوية محدثة من خريجي الجامعات الغربية، وقالوا برمزية اللغة واصطلاحيتها غربية كانت اللغة أو عربية. لقد أخذوا بآراء علماء اللغة الغربيين الذين أجمعوا على أن اللغة "هي التعبير الرمزي بالذات وإن كان لها الأولوية على كافة أنماط الرمزية التواصلية".

ولقد شهد القرن الحالي صراعاً مرّاً بين المدرستين، كانت الغلبة العددية فيه لأصحاب المدرسة الحديثة، بحكم ألقابهم العلمية الرفيعة، ومركزهم الجامعي المرموقة، وسلطانهم الرسمي على عقول أجيال من أدبائنا ولغويننا من خريجي الكليات الأدبية التي يشرفون عليها، لا فرق بين من قال منهم بعقرية اللغة العربية، وبين من أنكراها، وهكذا تضافر على دعوى فطرية اللغة العربية عوامل كثيرة، من أبرزها:

أ. إجماع علماء اللغة الغربيين على رمزية اللغة، ليصبح القول بفطرية اللغة العربية في نظرهم ونظر تلاميذهم، ضرباً من التخلف الفكري أو التقوّق التعصبي، دون أن ينتبهوا إلى ما بين لغتنا واللغات الغربية من فوارق في الأصل والنشأة والبنية.

ب. اعتماد أصحاب المدرسة القديمة من القدامى والمحدثين على الحسن الشاعري المرهف في المثقف العربي: أذن موسيقية مدربة على الشعر، تدرك الفروق الدقيقة بين تلوّنات الأصوات، ومعاناة أدبية طويلة، يدرك معها الفروق الدقيقة بين تلوّنات معاني الألفاظ. وهكذا لم يتبع أصحاب هذه المدرسة في ذلك نهجاً علمياً تجريبياً، ولم يستعينوا بمختلف العلوم الإنسانية والطبيعية والحديثة. فكانت أدلةهم اللغوية تعتمد تارة على النصوص (كالعلائي)، وتارة على مملكة التذوق الفني (كابن جني)، وتارة على صدى صوت اللفظة في النفس (كالرسوzi).

ج. انصراف معظم أدبائنا ولغويننا المحدثين عن الشعر العمودي قوله وحفظاً ورواية، مما أخذ معه الحس الشاعري المرهف ينضب في نفوسهم جيلاً بعد جيل، لتضمُّر بذلك الملكة الفنية التي كانت تأخذ بأسلافهم إلى فطريَّة اللغة العربية عفو السليقة الشعريَّة والنشأة الأدبية.

ولكن هل يستحيل علينا أن نجعل الإنسان العربي المعاصر يدرك فطريَّة اللغة العربية؟

إذا كانت فطريَّة اللغة العربية حقيقة إنسانية، فلا بد لها أن تطرح مجموعة من القضايا الإنسانية والمادية، التي يمكن إخضاعها للخبرات العلمية، مما يحتم على العقل قبول نتائجها، عربياً كان، أو غير عربي.

فما هي القضايا التي تطرحها فطريَّة اللغة العربية؟

هذه الفطريَّة تعني مبدئياً، أن اللغة العربية مقتبسة مباشرة من الطبيعة، مادتها وإنسانيتها، وإن أثر الطبيعة لا يزال عالقاً في جذور حروفها مبنيٍّ ومعنىًّا إلى يومنا هذا.

وإذن، فإنها تفترض أن الإنسان العربي الذي أبدع هذه الحروف لم ينحدر عن شعب آخر، وأن حروفه لم يقتبسها عن لغة أخرى.

كما أن هذه الفطريَّة تتضمن أن يكون الحرف العربي ظاهرة ثقافية، قد تفاعل مع مقومات الشخصية العربية وقيمها وتقاليدها، وأن يكون الإنسان العربي بالمقابل قد تفاعل مع المعطيات الثقافية للحرف العربي، ومع خصائصه الصوتية أيضاً.

ولقد استهدفت من هذه الدراسة إقامة الأدلة على صحة هذه المقوله ومقتضياتها.

ولكن ما هو موقف المدرستين اللغوين الآفتقي الذكر من هذه التائج المستخلصة مباشرة من مقوله فطريَّة اللغة العربية؟

بيني وبين أصحاب المدرسة اللغوية الحديثة:

لما كانت هذه المدرسة ترفض أصولاً فطرية اللغة العربية، فمن البديهي أن ترفض أيضاً نتائجها.

فلا الحرف العربي بكر، ولا الإنسان العربي فجر، وليس ثمة أي تفاعل بين الحرف العربي والإنسان العربي، ولا العكس بالعكس صحيح، إلى آخر ما هنالك من ضروب الرفض والإنكار، حتى ليظن القارئ وكأنه لا لقاء بيني وبين أصحاب هذه المدرسة في شيء.

وعلى الرغم من افتراقي وإياهم في بداية الشوط، واحتلافي وإياهم في نهايته، فما أطول ما تعقبت خطاهم بين هاتين النقطتين، وما أكثر ما جأت إلى العلوم التي استخدموها في أبحاثهم اللغوية، (وان غنى كل منا على ليله).

ولئن كنت استعنت بنذر من علوم التاريخ والآثار والمجتمع والفيزيولوجيا والأصوات والفن والأخلاق، بمعرض إقامة الأدلة والبراهين على صحة هذه المقوله، فإن هذه الدراسة تتتمي أكثر ما يكون الانتماء إلى علم اللغة النفسي.

فاللغة العربية بخصائصها ومزاياها الفطرية، لا يمكن أن تنكشف للذهن العربي، ما لم يستخدم العلوم اللغوية الحديثة في دراستها وتحليلها، ولكن تحت رقابة حس شاعري مرهف، وذوق أدبي رفيع.

فاللغة العربية كظاهرة نظرية من مظاهر الحياة الإنسانية، لا تخشى العلم الحديث قطعاً، وبقدر ما يستخدم من الوسائل العلمية الحديثة في استجلاء كنهها، تتاح لنا الفرصة للكشف عن المزيد من قيمها الجمالية ومضمونها الثقافية، لا بل وللكشف أيضاً عن المزيد من خصائص الحياة الإنسانية وقيمها، كرفيقي عمر منذ فجرهما الحضاري الأول.

ففي اللغة العربية من الأصالة العلمية، ما في أي بادرة أصلية من بوادر الحياة.

بيني وبين أصحاب المدرسة اللغوية القديمة:

إن في واحد من تلاميذ هذه المدرسة ومربيها. قد ترعرعت في ربوعها، أنهل من ينابيعها، وأقطف من ثمارها، وأتفياً ظلالها، فكانت جنتي اللغوية الفجر، وما كان أسعدي بها، حتى ظنت أنه لن يكون يوماً ما أى فراق بيني وبين أقطابها.

ولكن، على الرغم من انطلاقي وإياهم في البحث والقصي من نقطة الابتداء، هي بداية الحرف العربي، ووصولنا سوية إلى نقطة الانتهاء، هي فطرية اللغة العربية، فإني لم ألتق وإياهم في هذه المسيرة اللغوية الطويلة بين هاتين النقطتين، إلا في صدف من تقاطع الطرق، لتفق حيناً ونختلف أحياناً كثيرة.

فلقد اعتمد أصحاب هذه المدرسة في أبحاثهم وتقسياتهم بصورة عامة على سليقة أدبية متمكنة، وحس مرهف الشعور. ولربما تجاوزوا في تقسياتهم أحياناً، النطاق اللغوي التقليدي، إلى نطاق علوم النفس والحركة والأصوات، والمجتمع وغيرها، ولكن دون أن ترقى مثل تلك اللمع الذكية إلى مرتبة البحوث العلمية الحديثة. فلا نهج علمي تجرببي واضح، ولا استئثار جدي لمكتشفاتهم اللغوية في ميادين النفس والمجتمع والتاريخ والأصوات وما إليها.

ولقد عقدت فصلاً خاصاً في هذه الدراسة بعنوان (علماء اللغة العربية وأبحاث الحروف) استعرضت فيه آراء لفيف من كبار أصحاب المدرستين اللغويتين، حول خاصية الإيحاء في الحروف العربية، المرتبطة مباشرة بفطرية اللغة العربية.

أما أنا، فقد نهضت في التدليل على فطرية اللغة العربية نهجاً مغايراً.

فما هو منهجي في هذه الدراسة؟

لقد اعتمدت طريقة الخطأ المفترض في البرهان الرياضي للتحقق من مقوله فطرية اللغة العربية. أفترض، وأتساءل عن صحة الافتراض، وأجيب. ثم أتساءل عن صحة الإجابة. وهكذا، إلى أن تتطابق الإجابة الأخيرة مع حقيقة

الواقع. فتنحسب هذه الحقيقة الأخيرة، بحكم المنطق الرياضي، على جميع الافتراضات السابقة وأجوبتها.

الافتراض الأول:

إذا صح أن اللغة العربية فطرية النشأة، فإن ذلك يفترض بدأءة الحرف العربي وفجرية الإنسان العربي على حد سواء.

(بداءة الحرف العربي مرتبطة مباشرة بفجرية اللغة العربية ولا فراق. وفجرية الإنسان العربي مستخلصة من هذه الصلة الراهنة بين معاني الحروف العربية وبين الطبيعة. إذ لو أن الإنسان العربي اقتبس حروفه عن غيره، لانقطعت هذه الصلة بينها وبين الطبيعة، مثلما انقطعت في الحروف الغربية المقتبسة أصلاً عن الأبجدية الفينيقية).

وللإجابة على هذه الفرضية، عقدت فصلاً خاصاً في مستهل هذه الدراسة بعنوان: "حول بدأءة الحرف العربي والإنسان العربي".

ولقد تبين لي من هذه الدراسة، أن إنسان الجزيرة العربية ظل مقيماً فيها لم يبرحها قطعاً، ولم يغزه في عقر داره شعب آخر على الإطلاق، منذ بداية العصر الجليدي الرابع حوالي ألف السنتين قبل الميلاد حتى ألف العاشر أو الثامن قبل الميلاد، بعد أن أبدع جميع حروفه.

كما تبين لي أن الإنسان في الجزيرة العربية قد مر بمراحل حياتية ثلاثة:

1. مرحلة الصيد: وقد استمرت منذ فجر الإنسانية حتى ألف الثالث عشر قبل الميلاد. وكان الرجل القوي في هذه المرحلة هو سيد الأسرة بلا منازع.

2. مرحلة الزراعة: وقد بدأت أول ما بدأت على وجه الأرض في الجزيرة العربية على يد المرأة، حوالي ألف الثاني عشر قبل الميلاد. فكانت المرأة في الجزيرة العربية أول فلاح في التاريخ لتكون بذلك أول معلم في دنيا الحضارات. وفي هذه المرحلة انتزعت المرأة الذكية زعامة الأسرة من الرجل القوي.

3. مرحلة الرعي: وقد نشأت في الجزيرة العربية أول ما نشأت على وجه الأرض، حوالي الألف العاشر قبل الميلاد. وفي هذه المرحلة استعاد الرجل الشجاع المحارب سيادته على الأسرة، ولا يزال محتفظاً بها إلى حد ما، حتى اليوم.

كما تبين لي أن إنسان الجزيرة العربية قد أبدع حروفه عبر هذه المراحل الحياتية الثلاث، فكان منها الغاي والزراعي والرعوي. وقد أبدع الرجل استجابةً للمقتضيات المهنية في مرحلتي الصيد والرعوي بعض الحروف، كما أبدعت المرأة استجابةً لمقتضيات مهنتها في المرحلة الزراعية بعض الحروف أيضاً.

وهكذا فإن الموجات البشرية التي خرجت من الجزيرة العربية بين الألف العاشر والثامن قبل الميلاد إلى وادي الفرات ووادي النيل، تحت ضغط الجفاف المتزايد ألف عام بعد ألف، كانت تحمل بذور حضارة راقية، من حروف عربية، ورموز كتابية، وأدوات مدنية، ومعتقدات سماوية وتنظيمات قبلية كانت أساس أنظمة الحكم في المنطقة العربية حتى العصر الحديث.

الافتراض الثاني:

إذا صح أن الحروف العربية بدئية، فالمفترض أن يكون الإنسان العربي قد استخدم أصواتها للتعبير عن مختلف أحاسيسه الحسية ومشاعره الإنسانية.

وفي الحقيقة، عندما لمس الإنسان العربي الفجر الأشیاء من حوله، لا بد أنه قد عبر عن الإحساس بالخشونة أو النعومة أو الحرارة أو الصلابة، وما إليها من الملامس، بأصوات معينة مرفقة بحركات جسدية ملائمة، وذلك بمعرض التواصل والإعلام مع أبناء مجتمعه. وإنْ يمكن أن نطلق على مثل هذه الأصوات اسم الأصوات اللمسية. ولا بد أن هذه الأصوات والحركات قد تطورت وتهذبت مع تطور الإنسان العربي، عقلياً ونفسياً، واجتماعياً ومهنياً، لتسقط الحركات الجسدية وتختصر الأصوات الكثيرة أخيراً في أصوات حروف لمسية معينة.

ثم عندما تذوق هذا الإنسان الأشياء وشمها، ونظر إليها وسمع أصواتها، وعندما عانى بعض الانفعالات الشعورية، فلا بد أن يكون قد عبر عن كل ذلك بأصوات خاصة مرفقة بحركات ملائمة، على مثال ما فعل بالملموسات. لتسقط الحركات، وتذهب الأصوات، فتختصر في حروف ذوقية وشممية وبصرية وسمعية وشعورية.

الافتراض الثالث:

إذا صح أن الإنسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات الحروف العربية الفجرية فالمفترض أن توحّي الأصوات بمختلف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية. فأصوات الحروف، قبل أن تنتهي إلى القطاع اللغوي، تنتهي أصلاً إلى القطاع الصوتي.

ولقد اقتضي الإجابة على هذا الافتراض، القيام بدراسة مبتكرة على الحواس الخمس للكشف عن العلاقات المتبادلة بين الأصوات والحواس، وقد خلصت من هذه الدراسة إلى تصنیف الحواس في هرمین حسين اثنين:

أ. فالحواس الخمس من حيث ماديتها يمكن تصنیفها في هرم حسي سوي. يبدأ هذا الهرم بحسة اللمس، أشدّ الحواس مادية، كقاعدة له. ثم تأتي حسّة الذوق الأقل مادية، في الطبقة الثانية. ومن ثم تأتي حسّة الشم، فحسّة النظر، لتحل حسّة السمع أقل الحواس مادية وأكثرها تحりداً، قمة الهرم.

ب. أما الحواس الخمس من حيث قدرتها على استيحاء الأحاسيس (أي التأثير بها وإدراكتها)، فيمكن تصنیفها في هرم حسي منكوس، ذروته في الأسفل، وقاعدته في الأعلى.

يبدأ هذا الهرم بحسة اللمس المغلقة على نفسها في الذروة المنكوصة، فلا توحّي ملامس الأشياء بأي إحساس ذوفي أو شمي أو بصري أو سمعي أو شعوري. ثم تأتي حسّة الذوق في الطبقة الثانية. فتوحّي مذاقات الأشياء، بأحاسيس لحسية فقط، ولا توحّي بشيء من أحاسيس الحواس الأخرى أو

المشاعر الإنسانية. ثم تأتي على التوالي حواس الشم، فالنظر، فالسمع. كل حاسة منها تدرك أحاسيسها وتستوحى أحاسيس من دونها من الحواس، دون أن تستطيع استيعاب أحاسيس من فوقها. ولذلك فإن حاسة السمع تستوحى مختلف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية. بمعنى أن الأصوات توحى أصلاً بمختلف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية.

وهذه العلاقة بين الأصوات وبين الأحاسيس والمشاعر الإنسانية قد اكتشف بعضها كثير من العلماء والأدباء والشعراء والفلسفه. منهم عالم الصوت (يلماز) الذي تبين له من كشفه (ان ثمة تشابها بنزيوياً أساسياً بين أصوات اللغة التي تدركها الأذن، وبين الألوان التي تراها العين).

ومنهم الشاعر الفرنسي (رامبو) الذي لاحظ أن لأصوات بعض الحروف الفرنسية إيحاءات بألوان معينة، ليوحى له صوت حرف (O) باللون الأسود.

ومنهم ابن جني الذي جاء بقاعدته الشهيرة (خذوا لسموع الأصوات على محسوس الاحداث)، لتوضيح العلاقة الطبيعية بين الصورة الصوتية للفظة وبين صورتها المرئية في الحدث الذي تعبّر عن معناه.

ومنهم الارسوzi الذي قال بالعلاقة الثلاثية الأركان بين الصورة الصوتية للفظة العربية والصورة المرئية لها، وصداها الوجدان (أي المشاعر الإنسانية).

إلا أن أحداً لم يقل بأية علاقة بين الأصوات والأحاسيس الذوقية والشممية.

ولكن تبين لي أثناء هذه الدراسة، أن الأصوات الانفعالية، لا يمكن أن توحى بمشاعرها الإنسانية بدقة، إلا إذا كان سامعها قد عانى سابقاً هذه المشاعر بالذات.

وهذا ما قادني إلى القول بأن الشعور الذي يعني ذاته بذاته، هو الحاسة السادسة. فعقدت فصلاً خاصاً للكشف عن دور الشعور، سواء في عملية إبداع

أصوات الحروف عن طريق التقمص، أو في عملية استيحاء معاني الأصوات عن طريق الاستبطان، لأخلاص أخيراً إلى البرهان على أن الشعور يتمتع بخصائص الحواس، وإن تميز عنها في بعض الموصفات. ونظراً لشفافية هذه الحاسة وتجدرها المطلق عن المادة فقد صنفتها على امتداد المهرمين الحسينين فوق ذروة الأول وقاعدة الثاني.

الافتراض الرابع:

إذا صح أن الإنسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه، وأن الأصوات توحّي فعلاً بمختلف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية، فالمفترض أن توحّي أصوات الحروف العربية بهذه الأحاسيس والمشاعر.

(فمجرد القول بأن الإنسان العربي الفجر قد استخدم أصوات حروفه للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره، لا يتضمن بالضرورة هذه الصلة الإيحائية بين أصوات الحروف ومعانيها. إذ يمكن أن نصرف ذلك إلى أن الإنسان العربي قد فرض رمزية مصطنعة بين الحروف ومعانيها. وذلك على مثال ترجمة العالم بافلوف الشهيرة الذي استخدم فيها قرع الجرس لتنبيه الحاسة الذوقية في كلبه. وليس بين صدى قرع الجرس وبين حاسة ذوق كلبه إلا عادة تقديم الطعام له عند القرع، ولا إيماء ولا استيحاء).

وللحتحقق من صحة هذا الافتراض، أخذتأتأمل صدى أصوات الحروف العربية في نفسي حرفاً بعد حرفة، للكشف عن خصائصها ومعانيها، على مهل الشعور والأعوام. ولقد تبين لي أن هذه الحروف موزعة بالفعل بين الحواس والمشاعر الإنسانية، لكل حاسة مجموعة من الحروف، ولكل انفعال شعوري أساسي، حرفة خاصة.

فكان لحاسة اللمس ستة حروف هي: (ت.ث.ذ.ذ.ك.م.).

وكان لحاسة الذوق حرفان هما (ر.ل.).

وكان لحاسة البصر أحد عشر حرفا هي (الهمزة أ. ب. ج. س. ش. ط. ظ. غ. و. ي.).

وكان لحاسة الشعور سبعة أحرف هي: ((ص. ض. ن. خ. ح. ع.)).
أما حاسة الشم فلم أجد لها حرفا خاصا بها، وإن كان بعض أصوات الحروف إيحاءات شمية، إلى جانب أبحاثها الحسية الخاصة. على أن حرف الطاء البصري، هو الصق الحروف بحاسة الشم، مخرج صوت وإيحاء معنى.

الافتراض الخامس:

إذا صح ما انتهيت إليه من تأملاتي الخاصة، من حيث تصنيف الحواس في هرمين حسين، ثم من حيث توزيع الحروف بين الحواس والمشاعر الإنسانية، فالمفترض أن يكون لكل ذلك سنه من واقع اللغة العربية. ولا بد للإنسان العربي أن يكون استثمر الخصائص الصوتية لحروفه في إبداع ألفاظه للتعبير عن معانيها.

وبتعبير أدق، لا بد أن يكون لصوت الحرف العربي دوره الفعال في تكوين معنى اللغة العربية.

وللتتحقق من صحة هذه الافتراضات جئت إلى المعاجم اللغوية للكشف عن مدى التوافق بين خصائص الحروف الصوتية وبين معاني الألفاظ التي تدخل في تركيبها.

ولقد كان من أصول البحث العلمي، أن يستخرج معاني جميع المصادر التي تبدأ بحرف معين، ثم معاني جميع المصادر التي تنتهي به، ومن ثم جميع معاني المصادر التي يقع هذا الحرف في أواسطها. ثم أقارن بين هذه المعاني وبين الخصائص الصوتية لهذا الحرف. وذلك لأرى مقدار نسبة التوافق بين خصائصه الصوتية وبين معاني جميع المصادر التي شارك في بنائها. وأخيرا، لنقرر فيما إذا كان الإنسان العربي قد استخدم الخصائص الصوتية لهذا الحرف في معاني الألفاظ، وأن أنه لم يفعل. وهكذا حرفا بعد حرف، لنحكم في النهاية، فيما إذا كان

للحروف العربية معانٍ خاصة، أم أنها مجرد رموز على معانٍ، وأن اللفظة العربية وبالتالي، مجرد مصطلح على معنى، كما يقول أصحاب المدرسة اللغوية الحديثة.

ولما كان هذا التقصي العلمي فوق طاقتى، فقد رأيت بادئ ذي بدء أن أكتفى باستخراج معانٍ الألفاظ التي تبدأ بالحرف موضوع الدراسة، بزعم أن الحرف الأول من اللفظة العربية، هو الذي يطبع معناها بخصائصه الصوتية. وذلك استناداً من التزعة الفردية في الإنسان العربي المتهם بأنه مولع بمكان الصدارة من كل أمر، لا يبعد معها أن يُسْنِدَ الزعامـة في الكلمة للحرف الأول. فهـذا كانت النتيجة؟

لقد صدقت وجهة نظري هذه بالنسبة للحروف القوية بصورة غير متوقعة. فكانت خصائص الحروف ذات الشخصيات المتميزة تتطابق مع معانٍ الألفاظ التي تبدأ بها، بنسب تراوح بين (40-66) بالمئة، كحرروف (د، ر، ل، ب، ج، ف، ز، ق، خ، ص، ه، ع). كما أن معانٍ الألفاظ التي بدأت بمعظم هذه الحروف قد التزمت بطبقاتها الهرمية، لم تتجاوزها إلى الطبقات العليا، إلا نادراً، وبفعل حرف قوي الشخصية يتمنى إلى تلك الطبقات، وتلك معجزة خارقة لا مثيل لها في أي لغة من لغات العالم.

فمعاني جميع الألفاظ التي تبدأ بحرف الدال اللامسي مثلاً، لم تتجاوز طبقتها اللامسية إلى الطبقات العليا إلا في ثلاثة ألفاظ (الدسم) للطبقة الذوقية، و(دندن) و (دوى) للطبقة السمعية.

أما الحروف الشاعرية الرقيقة، كحرروف: (م.س.ن.)، فكانت أقدر على فرض خصائصها الصوتية على معانٍ الألفاظ، عندما تقع في نهاياتها، وليس في أوائلها، وتلك رهافة سمع في الإنسان العربي ملقطة لأنظار.

(وذلك، على مثال ما كانت المرأة في المجتمع الرعوي أوجي بخصائصها الانثوية، رقة وخشمة وإحاطة وحناناً، عندما تستقر في مضربيها في مؤخرة الصفوف، انسجاماً مع ميلها الفطري الأصيل إلى دواعي الطمأنينة والاستقرار.

على العكس من الرجل الراعي في صحرائه، الذي كان بجهارة صوته، وخشونة منظره وصلابة قسماته، أوحى بالقوة والرجلولة وادعى البطولة، عندما يكون في مقدمة الصفوف).

أما الحروف الضعيفة الشخصية، فلم تفلح في فرض خصائصها الصوتية على معاني الألفاظ التي تتصدرها أو تتوسطها أو تنتهي بها، كما لم تستطع أن تحفظ بطبقاتها الهرمية. فهي حروف أممية، لتلوين معاني الألفاظ التي تدخل في تراكيبيها، كحروف: (ا، و، ي، ط، ح). شأن هذه الحروف، شأن الأمميات في المجتمعات الإنسانية.

وهكذا بالتزام معاني الألفاظ التي تبدأ بالحروف القوية الشخصية طبقاتها الحسية، لا تتجاوزها إلى الطبقات العليا، إلا نادراً، وإن شملت الطبقات الحسية الأدنى، فإن ذلك يؤكّد صحة تصنيف الحواس في المرم الحسي المنكوس، وإن الأصوات بخاصة توحّي بأحاسيس جميع الحواس.

الافتراض السادس:

(كل أثر فني أصيل يحمل بالتأكيد نفحة من روح مُبْدِعه، لينطبع بطابعه الشخصي المميز، عمارة كان الأثر، أو نحتاً، أو رسمًا، أو شعراً، أو موسيقى أو أدباً... مما يستطيع معه ذوقة الفنون الأصلاء، أن ينسبوا الآثار الفنية المجهولة الأنساب إلى أصحابها).

فإذا صح أن الإنسان العربي قد أبدع حروفه عفو فطرته السوية، ليعبر بها عن أحاسيسه ومشاعره في ألفاظ طوال آلاف الأعوام، فالمفترض أن يحمل الحرف العربي طابع الشخصية العربية.

وللتتحقق من صحة هذا الافتراض عقدت فصلاً خاصاً في القسم الثاني من هذه الدراسة بعنوان: "بين فردية الإنسان العربي وفردية الحرف العربي".

وفي الحقيقة، لما كان الإنسان العربي قد بدأ حياة الرعي والتشرد في الجزيرة العربية منذ ألف العاشر قبل الميلاد، ولا جدران عالية تعصميه من عadiات

الوحوش والناس، ولا سقوف مرفوعة تقيه من تقلبات الطقس والطبيعة، فقد استجاب لكل هذه التحديات بمحضون منيعة من القوة والشجاعة، وبأردية واقية، من التقشف والصبر والجلد.

ولما كان المجتمع العربي الرعوي لم ينعم بسلطة مركزية مسيطرة تحميء من أعدائه والطامعين بقطعانه فقد جأ إلى روابط قبلية تنجده عند الحاجة وتثار له عند الاقتضاء.

ولما لم تتوفر له مؤسسات اجتماعية تكفله في عوزه ومرضه وضعفه وطوارئه، فقد أحدثت مؤسسات إنسانية من تقاليد الكرم والضيافة ومفاهيم الشهامة والمروءة والنجدة والشرف، يلجاً إليها عند الضرورة. وهكذا قامت فردية الإنسان العربي أول ما قامت، على أصالة الصلة بين طاقاته الروحية وطاقاته الجسدية، بعضها يأخذ بعنق بعض.

فكلاً صبت نفسه في مواقفه إلى قيم إنسانية عليا، استجاب جسده لتحديات الحياة قوة وتجلداً. والعكس بالعكس صحيح. لتقوم فردية الإنسان العربي أصلاً، على الرابطة الأصلية بين القيم الأخلاقية والقيم الاجتماعية.

وبالمقابل، فإن الحروف العربية قد نشأت منذ فجرها الأول في بيئة بكر، لا لغة فيها، ولا فنٌ ولا أدب، ولا دين، ولا فلسفة، فألقى الإنسان العربي على عاتقها كل هذه الأعباء الثقافية للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره وأفكاره وحاجاته. وقد استجابت الحروف العربية عبر العصور لهذا التحدي الثقافي الكبير. لتحمل الحروف العربية في طيات أصواتها تراث الإنسان العربي الثقافي، إن لم يكن تراث الإنسانية.

وهكذا قامت فردية الحرف العربي على أصالة الصلة بين خصائصه الصوتية المميزة وبين معانيه، على مثال ما قامت الفردية العربية على أصالة الصلة بين طاقاته الجسدية وطاقاته الروحية.

وأنسجاماً مع نهج الإنسان العربي الفني الأخلاقي في مراتبه الاجتماعية وتقاليده، ومؤسساته، قد خص الحروف العربية التي في أصواتها تنسق وانسجام وفعالية بمختلف معاني الشهامة والمرودة والسمو ومشاعر النخوة والحنين والخشوع وما إليها من القيم الإنسانية. أما الحروف التي في أصواتها فجاجة واضطراب ورخاوة ونشاز، فقد خصها بمعاني الفظاظة والقباحة والخسدة والقدارة والعتمة والاضطرابات النفسية والتشوهات الجسدية، وما إليها من النقائص الإنسانية، في روابط صحيحة صريحة متبدلة بين القيم الجمالية والقيم الأخلاقية، ظاهرة لغوية متفردة في دنيا الحروف لا مثيل لها في لغات العالم أيضاً.

ليصدق بذلك الحدس الذي تأسست عليه أصلاً هذه الدراسة ومآلها:

"لا فن بلا أخلاق، ولا أخلاق بلا فن"

الافتراض السابع:

إذا صح أن الإنسان العربي قد صبّ في الحرف العربي عصارة روحه، وخلاصة مقوماته الشخصية، على وجه ما سبق، فالمفترض أن يكون ثمة علاقة نفسية بين الحرف العربي والإنسان العربي.

وللتتحقق من صحة هذا الافتراض، عقدت فصلاً خاصاً في القسم الثاني من هذه الدراسة بعنوان: "الجوانب النفسية في الحرف العربي".

وفي الحقيقة، لما كان لصوت كل حرف عربي خصائصه الصوتية الذاتية التي توحّي بمعانيه، فإنه لا بد للإنسان العربي بصورة مبدئية أن تتأثر نفسه بخصائص هذه الحروف عند التلفظ بها. فإذا كان في صوت الحرف اهتزاز واضطراب كالماء مثلاً، انعكس هذا الاهتزاز والاضطراب على نفس قائله وسامعه على حد سواء. ويكون ذلك أوضح ظهوراً، إذا رافق مثل هذا الحرف حروف مناسبة، وركبوا في صيغة ملائمة، ولا بد لقائل هذا الحرف أن تعاني

جملته العصبية، ذات الاهتزاز، والاضطراب، استعداداً للتلفظ به، على مثال ما أصاب مبدعه الأول، ولو بانفعال مخفف، آه، أوّاه.

وهكذا الأمر مع بقية الحروف، وإذن:

لما كانت خصائص الحروف العربية هي وليدة مخارجها الصوتية على مدرج النطق، وكان لكل إنسان مخرج صوت معين على مدرج النطق أيضاً، فإن الإنسان الذي ينطبق مخرجه الصوتي على مخرج أي حرف من الحروف العربية، لا بد أن تتأثر شخصيته بخصائص ذلك الحرف بالذات.

فالفرد الذي يكون مخرج صوته العفوي المعتمد هائياً مثلاً، لا بد أن تكون شخصيته منطبعة مسبقاً بخصائص صوت هذا الحرف، اضطراباً نفسياً و/or وحزناً دفينـاً، وأن يوحـي صوته بالتالي بهذه المشاعر بالذات، وهكذا الأمر مع من كان مخرج صوته عينـياً، أو حائـياً، أو جـيمـياً، أو نـونـياً. وما إلى ذلك من المخارج الصوتية للحروف والنماذج الإنسانية للأفراد.

وهذه القاعدة الصوتية اللغوية، هي أصدق ما تكون بين المغنيـين والمـرتـلـينـ.

ولقد عقدت في القسم الثاني من هذه الدراسة فصلاً خاصاً بعنوان "الحروف العربية والأصوات الغنائية"، كشفت به فيه عن مخارج أصوات بعض المغنيـين والمـرتـلـينـ، منهم ذـو المـخـرـجـ الصـوـتـيـ العـيـنيـ، (ودـيعـ الصـافـيـ، عبدـ الوـهـابـ فيـ شـبابـهـ، فـيـروـزـ، أمـ كـلـثـومـ)، والـهـائـيـ (فـريـدـ الـأـطـرـشـ خـضـيرـيـ أبوـ عـزيـزـ)، والـحـائـيـ (نجـاحـ سـلامـ)، والـيـائـيـ (فـايـزةـ أـحـدـ)، والـنـونـيـ (عبدـ الـبـاسـطـ عبدـ الصـمـدـ، أـحـمـدـ السـكـرـيـ).

ولكن هل تقتصر هذه القاعدة الصوتية اللغوية على الإنسان العربي فحسب، أم أنها تتجاوزه إلى الناس كافة؟

بحكم أصلـةـ الـصـلـةـ بيـنـ الخـصـائـصـ الصـوتـيـةـ لـلـحـرـوفـ العـرـبـيـةـ المـقـبـسـةـ عنـ الطـبـيـعـةـ وـبيـنـ معـانـيـهـ، فإنـ الـحـرـفـ العـرـبـيـ، فيـ هـذـاـ المـضـامـرـ الصـوـتـيـ اللـغـوـيـ،

يتجاوز نطاقه القومي إلى الإنساني. ولقد ضربت على ذلك بعض الأمثلة من مختلف الشعوب.

ومن ينكر علينا هذه العلاقة بين شخصية الإنسان وبين مخرجه الصوتي على مستوى الأفراد والشعوب، فإني أحيله إلى المنحنيات الصوتية الثلاثة التي اكتشفها العالم (ادوارد سيفرز) وتلميذه الموسيقي "غوستاف بكينج".

فكل فرد، على رأيهما، يحمل كلامه خصائص لا تعطل، ولا يمكن التخل عنها. وهذه الخصائص ترجع في أصلها إلى القسم الأدنى من الجهاز الصوقي الواقع بين منطقة البطن، وبين الصدر والتجويف البطني. ويتحللها للأصوات البشرية، تبين لها أن ثمة ثلاثة نماذج أساسية من المنحنيات، ولكل منها تفرعاته. وكل متكلم يتميأ أصلاً لواحد من هذه المنحنيات التي تتحكم بحركاته الجسدية واليدوية والوجهية، وكذلك بالكتابة والرسم والرقص والرياضة والجنس، وكافة النشاطات وأنماط السلوك. وإن القبائل، وحتى الشعوب ببرمتهما، لا تستخدم، بشكل شبه حصرى، إلا واحداً من منحنيات (بكينج).

أسوق هذا الخبر (العلم النفسي – الصوتي)، للتدليل على أن ثمة علاقة أصلية بين شخصية الإنسان، وبين طابعه الصوتي، ولا يهم كثيراً بعد ذلك، أن يكون، أو لا يكون ثمة علاقة ما بين المخارج الصوتية للأفراد والشعوب، وبين منحنيان (بكينج) وإن كنت لا أستبعدها.

وهكذا قد خصصت القسم الثاني من هذه الدراسة، وعنوانه (الحروف العربية والشخصية العربية)، لاستھار خصائص الحروف العربية في الكشف عن الجوانب النفسية والاجتماعية والفنية والأخلاقية في الإنسان العربي، وعن مدى تجاوب الحرف العربي مع مقومات الشخصية العربية، على حد سواء.

وهكذا بدأت دراستي عن الحروف العربية، من حيث انتهى أصحاب المدرسة اللغوية القديمة، وانتهيت بها عند أبواب المدارس اللغوية الحديثة، لم أتجاوز عقباتها إلا قليلاً، ولكن صحبابة مقولة فطرية اللغة العربية، في زيها العصري المتكرر.

وإنني لأرجو أن تثير هذه الدراسة اهتمام اللغويين من أصحاب المدرستين، ليؤاخوا في ذلك بين التراث العلمي المعاصر، للكشف عن خصائص الحرف العربي، وعن مقومات الإنسان العربي.

فلقد عناي من هذه الدراسة، أكثر ما عناي جانباها الثقافي والقومي، فتوخيت منها أمرين اثنين:

أ. أن ألقى بعبء تعريف مفاهيمها، وتحديد مضمونها الثقافي، على عاتق قبضة من الحروف، لا يصعب استيعاب خصائصها. فإذا ما توصل الإنسان العربي إلى الكشف عن جميع خصائص الحروف العربية ومعانيها، في محاولات لغوية مماثلة، استطاع أن يحرر لغته وفلسفته وأدبه ومفاهيمه من مختلف الشوائب. ويتحرر التراث العربي الأصيل من دخشه ومدسوسه، دون أن يتذكر لمضمونه الذاتي ومقوماته القومية.

ب. أن أستنبط من الحروف العربية نهج الإنسان العربي في الحياة، بقواعدة التي أسس عليها ذاته، وأقام تقاليده، وبني مؤسساته. فأربط بين هذه القواعد وبين خصائص الحروف العربية ومعانيها، كحقائق راهنة لا مجال لإنكارها، فيتمسك باللب الأصيل، ويخلّى عن القشر المرحلي العارض.

وهكذا فالحروف العربية، إنما هي جذور الإنسان العربي في الطبيعة والتاريخ معاً. إنما الجاذبية اللامرئية التي تربطه بضميم أمته وتجمع بينه وبين إخوانه على سطوح مجتمعاتنا.

ولهذا السبب بالذات، قد استهدفت الحروف العربية منذ مطلع هذا القرن، ولا تزال تستهدف لحملات مشبوهة من تهم القصور والعقم وافتراءات الرجعية والتخلف، ليصار إلى تبديلها بحروف لاتينية تارة، وللاستعاضة عن الفصحى باللهجات العامية المحلية تارات أخرى.

وعندما نتخلى عن حروفنا، أو فصحانا، لا بد أن تقطع بذلك جذورنا الثقافية والقومية معاً، وإن فقد بالتالي ارتباطنا بيئتنا وأمتنا، لنغترب في عقر دارنا غربة قاطعة، لا لقاء معها أبداً الدهر.

وعندئذ، تزداد فرص بقاء ونماء جميع الكيانات السرطانية في جسم الوطن العربي العملاق، بما يمكن إثارته وزرعه في روابطه وبين أجزائه من مختلف عوامل التفسخ، ومن شتى ضروب التناقض والتزاع.

مجلة "اللسان العربي": الجزء الأول من العدد السابع عشر (ع. 17 ج. 1)، من الصفحة 123 إلى 135.
سنة النشر: 1979.